

المحاضرة الرابعة

الأهداف :

تمكين الطالب من معرفة مسببات الفتح الإسلامي وبعض عراقيه واهم حملاته في المرحلة الأولى وهي الاستطلاع والاستكشاف .

الفتح الإسلامي لبلاد المغرب :

كان فتح الغرب الإسلامي بشكل عام ضمن حركة الفتوحات التي بدأتها دولة الإسلام منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، غير أن حواضر المغرب لم تكن مسرحاً لهذه الفتوحات إلا في العهد الراشدي ومن بعده الأموي .

دوافع الفتح والعوامل المساعدة عليه :

- 1 - نشر الإسلام وهو الهدف الأسمى وغاية الفاتحين الأولى ، كون الرسالة الإسلامية رسالة عالمية لا تختص بجغرافية بعينها .
- 2 - تأمين الحدود الغربية للدولة الإسلامية وهو ما يعني التوسع نحو بلاد المغرب ومن بعدها الأندلس .
- 3 - تدمير الساكنة المغربية من الظلم والقهر المسلط عليهم من قبل الإدارة البيزنطية الحاكمة .
- 4 - ضعف الحكم البيزنطي وعدم تقبله من طرف الأهالي مما جعلهم في تمرد مستدام ضده .
- 5 - انسجام غالبية المغاربة مع الفاتحين وقبولهم بالمشروع الإسلامي وهو ما جعلهم يتحولون إلى جنود فاتحين بل ومحاربين من اجل هذا المشروع¹ .

¹ عبد العزيز شهري : المرجع السابق ، ص 9 .

غير أن الملاحظ أن هذه الفتوحات لم تكن باليسيرة بل طال عمرها واستغرقت جهداً وإمكانيات وتضحيات جسام .

أسباب طول فترة الفتح :

- 1 - التحصينات البيزنطية التي أقاموها أو تلك التي ورثوها عن أسلافهم الرومان وقاموا باستثمارها وترقيتها لتكون أكثر تحصيناً .
- 2 - المقاومة المغربية والبيزنطية الشرسة التي أعاقت حركة الفتوحات .
- 3 - المشاكل السياسية التي عرفتھا الخلافة الإسلامية في المشرق منها تلك المتعلقة بخلافة علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وما نجم عنها من خلافات بينه وبين الصحابة - رضوان الله عليهم جميعاً - ومنها ثورة ابن الزبير أو مشكلة كربلاء .
- 4 - تأخر إقامة قاعدة إسلامية تكون مرتكزا لتوسيع النفوذ الإسلامي في بقية المناطق المغربية² .
- 5 - جهل الفاتحين بالطبيعة التضاريسية للمنطقة .

مراحل الفتح :

يمكن التمييز بين مرحلتين :

أ - مرحلة الاستطلاع والاستكشاف :

شرع عمرو بن العاص في التوسع نحو برقة حيث كانت شبه ولاية مستقلة عن البيزنطيين ، باعتبارها امتدادا طبيعيا لمصر وإقليما متما لها وتأميناً لحدود الدولة الإسلامية من جهة الغرب ، فافتتح برقة سنة 21 هـ حيث سار إليها في جيش مع فرسانه فافتتحها وصالح أهلها على جزية ، ليتوجه بعدها بجيشين احدها يسير بمحاذاة الساحل للاستيلاء على طرابلس والثاني يتوغل إلى الداخل حيث افتتح عقبة فزان ومن بعدها زويلة ، أما عمرو بن العاص

² عبد العزيز شهبي : المرجع السابق ، ص 10 .

فاستولى على سرت ثم لبدة حتى أدرك طرابلس وفتحها سنة 22 هـ ، ثم افتتحت ودان وسبرت سنة 23 هـ³ ، >> وفي سنة 22 هـ بعدها افتتح بلاد طرابلس ، وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يخبره بما أفاء الله عليه من النصر والفتح وان ليس أمامه إلا بلاد افريقية وملوكها كثير وأهلها في عدد عظيم وأكثر ركوبهم الخيل فأمره بالانصراف عنها >>⁴ .

بعدها استأذن عمرو بن العاص الخليفة عمرو بن الخطاب في فتح افريقية ، فرض الخليفة ذلك فعاد إلى مصر⁵ ، بعد أن ترك عقبة بن نافع على هذه المناطق الصحراوية حيث استمال كثيرا من ساكنتها لاعتناق الإسلام⁶ .

بعد تولي عثمان بن عفان الخلافة استأنف المسلمون حركة الفتوحات نحو الغرب الإسلامي ، وكان القائد البيزنطي جرجير يوس قد نقل عاصمته إلى الداخل التونسي بالضبط إلى سبيطلة سنة 24 هـ وحصن بعض المدن مثل سفاقس وقابس وقفصة ، لإدراكه الخطر الإسلامي الداهم من الشرق ، وكان عثمان بن عفان قد استشار الصحابة في فتح افريقية فوافقوه الرأي ، فسار المسلمون بقيادة عبد الله بن أبي سرح في عشرين ألفا من المقاتلين ، فلقهم جرجير يوس⁷ في مائة وعشرين ألف مقاتل والتقى الفريقان قرب سبيطلة ودارت معركة حامية الوطيس أسفرت عن مقتل جرجير واستيلاء المسلمين على حصن سبيطلة سنة 27 هـ وقد كانت مقتلة الروم عظيمة وغنم المسلمون واسروا⁸ .

وعن تفاصيل معركة سبيطلة يورد لنا الطبري قوله : >> وفي هذه السنة - أي 27 هـ - عُزل عمر بن العاص عن خراج مصر ، واستعمل عليه عبد الله بن

³ عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ص 141 - 149 .

⁴ ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق : ليفي بروفنسال و ج . كولان ، ط 3 ، دار الثقافة ، بيروت ، 1983 . ج 1 ، ص 8 .

⁵ المصدر السابق ، ج 1 ، ص 8 .

⁶ عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص 152 .

⁷ ويسميه العرب جرجير .

⁸ ابن عذاري المراكشي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص 10 - 11 .

سعد بن أبي السرح وكان أخا عثمان من الرضاعة ... ثم إن عبد الله بن سعد لما وُلِّي أرسل إلى عثمان في غزو افريقية والاستكثار من الجموع عليها وفتحها ... فسار بهم عبد الله بن سعد إلى افريقية ، فلما وصلوا إلى برقة لقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين وكانوا بها وساروا إلى طرابلس ، فنهبوا من عندها من الروم ، وسار نحو افريقية ، وبث السرايا في كل ناحية ، وكان ملكهم اسمه جرجير ، ومُلَّكه من طرابلس إلى طنجة ...

فلما بلغه خبر المسلمين ، تجهز وجمع العساكر وأهل البلاد فبلغ عسكره مائة ألف وعشرين ألف فارس ، والتقى هو والمسلمون بمكان بينه وبين مدينة سببيلة يوم وليلة ، ... وأقاموا هناك يقتتلون كل يوم ، وراسله عبد الله بن سعد يدعوه إلى الإسلام أو الجزية ، فامتنع منهما وتكبر عن قبول احدهما ، وانقطع خبر المسلمين عن عثمان ، فسير عبد الله بن الزبير في جماعة إليهم ليأتيه بأخبارهم فسار مُجِدًّا ووصل إليهم وأقام معهم ، ولما وصل كثر الصياح والتكبير في المسلمين ... ورأى عبد الله بن الزبير قتال المسلمين كل يوم من بكرة إلى الظهر عاد كل فريق إلى خيامه ، وشهد القتال من الغد فلم ير ابن أبي السرح معهم فسأل عنه ف قيل انه سمع منادي جرجير يقول : "من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي" ، وهو يخاف ، فحضر عنده وقال له : تأمر مناديا ينادي : " من أتاني برأس جرجير نقلته ⁹ مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده ففعل ذلك فصار جرجير يخاف اشد من عبد الله " ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد : إن أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلة ... وقد رأيت أن نترك غدا جماعة صالحه من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملوا ، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ، ونقصدهم على غيرة فلعل الله ينصرنا عليهم .

⁹ النَّفْل : هو الغنيمة والهبية . ابن منظور : لسان العرب ، تحقيق : عبد الله على الكبير وآخرون ، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت ، ص 4509 .

فاحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك ، فلما كان الغد فعل عبد الله ما اتفقوا عليه ، وأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم وخيولهم عندهم مسرجة ومضى الباكون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتلا شديدا ، فلما أذن بالظهرهم الروم¹⁰ بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى اتبعهم ثم عاد عنهم هو المسلمون فكلّ من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعباً ، فعند ذلك اخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين وقصد الروم فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجل واحد وكبروا ، فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيم وقُتل جرجير ، قتله ابن الزبير وانهزم الروم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأخذت ابنة الملك جرجير سبيّة ، ونازل عبد الله بن سعد المدينة فحصرها حتى فتحها ، ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها ، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار»¹¹ .

بعد هذه الانتصارات عرض البربر دفع المال لابن أبي سرح مقابل رجوعه من حيث أتى ففعل ذلك وعاد إلى مصر¹² دون أن يستثمر هذه الانتصارات في إقامة قواعد ثابتة للمسلمين في افريقية¹³ ، وبعدها ضربت الفتنة الدولة الإسلامية في مقتل فصرفت عن الفتوحات التي استأنفها الأمويون فيما بعد .

بعد أن أقام الأمويون ملكاً لهم في الشام (دمشق) بدأت حركة الفتوحات من جديد والتي كانت أهمها على الإطلاق حملة معاوية بن حديج سنة 45 هـ ، حيث خرج من مصر على رأس جيش ضخم ، لغزو افريقية ، حتى وصل قرطاجنة والتقى مع البيزنطيين بقيادة البطريق نقفور عند منطقة قمونية ، فانهزم البيزنطيون عند أول اشتباك وانسحبوا إلى مدينة سوسة وتحصنوا داخل أسوارها أما قوات ابن

¹⁰ ويعرفون بالبيزنطيين .

¹¹ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط 2 ، دار المعارف ، القاهرة ، د . ت ، ج 2 ، ص ص 482 - 484 .

¹² ابن عذاري المراكشي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص 12 ، 14 .

¹³ عبد العزيز شهبي : المرجع السابق ، ص 15 .

حديج فقد عسكرت عند مكان يسمى القرن ، ومن هناك سيّر جيشين احدهما بقيادة عبد الله بن الزبير نحو سوسة فافتتحا وفر البطريق نقفور داخل البحر دونما قتال وتعقبهم ابن الزبير ففروا منهزمين ، والآخر بقيادة عبد الملك بن مروان ووجهته حصن جلولاء فحاصرها أياماً بعد أن التحق به ابن الزبير ، وتمكنوا من دخولها وافتتاحها ، غير أن هناك من المؤرخين من يذكر أن ابن حديج هو من افتتح حصن جلولاء أمثال ابن عذاري وابن عبد الحكم والمالكي¹⁴ .وعلى أية حال فقد افتتح المسلمون جلولاء وغنموا .ليتمكن معاوية بن حديج فيما بعد من افتتاح بنزرت بل وغزا صقلية وغنم منها سنة 46 هـ على رواية ابن عذاري¹⁵ ، وقيل أن معاوية بن حديج هو أول من اختط القرن وحفر هناك الآبار¹⁶ .

يورد لنا النويري بعض أخبار فتوح معاوية بن حديج بقوله : >>ومضى ابن

حديج حتى انتهى إلى افريقية وهي حُرْب ، وقد صارت نارا ... وبعث ملك الروم بطريقا يقال له نجفور¹⁷ في ثلاثين ألف مقاتل فنزل على ساحل البحر ... فبعث ابن حديج إليه خيلاً ، فقاتلوه فانهزموا وقلع في البحر ، وقاتل معاوية أهل جلولاء على باب المدينة ، فكان يقاتلهم صدر النهار ، فإذا مال الفئى¹⁸ انصرف إلى معسكره بالقرن ، فقاتلهم ذات يوم فلما انصرف نسي عبد الملك بن مروان قوسا له معلقة بشجرة ، فانصرف ليأخذها ، وإذا جانب المدينة قد إنهدم ، فصاح في اثر الناس فرجعوا ، وكانت بينهم حرب شديدة وقتال عظيم حتى دخلوا المدينة عنوة ، واحتوا على جميع ما فيها ، وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية ، وقيل : بل كان معاوية بن حديج مقيما بالقرن وبعث عبد الملك بن مروان إلى جلولاء في ألف فارس فحاصرها أياما فلم يظفر بها ، وانصرف الناس منكسرين فلم يسر إلا يسيرا حتى رأى في ساقه الناس غبارا كثيرا ، فظنوا أن العدو قد اتبعهم ، فرجعوا فإذا مدينة جلولاء قد وقع حائطها من جهة واحدة ، فانصرف المسلمون إليها فقتلوا من فيها

¹⁴ عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ص 181 - 184 .

¹⁵ ابن عذاري المراكشي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 18 .

¹⁶ عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص 199 .

¹⁷ ويُعرف كذلك باسم نقفور .

¹⁸ المقصود به الظل .

وغنموا وسبوا ، وانصرف عبد الملك إلى معاوية وهو معسكر بالقرن ينتظره ، فلما أتاه بالغنائم اختلفوا فيها فقال عبد الملك : " هي لأصحابي خاصة " وقال ابن حديج : " بل لجماعة المسلمين " ، وكتب إلى معاوية بن أبي سفيان فعاد جوابه : " العسكر ردءٌ¹⁹ السرية ، فاقسم بين الناس جميعهم " فوقع سهم الفارس ثلاثمائة دينار
20 << .

¹⁹ بمعنى عيون .

²⁰ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق : علي بوملحم ، ط 1 ، دارالكتب العلمية ، بيروت ، 2004 ، ج 24 ، ص ص 10 - 11 .